نقد أخلاق النصر

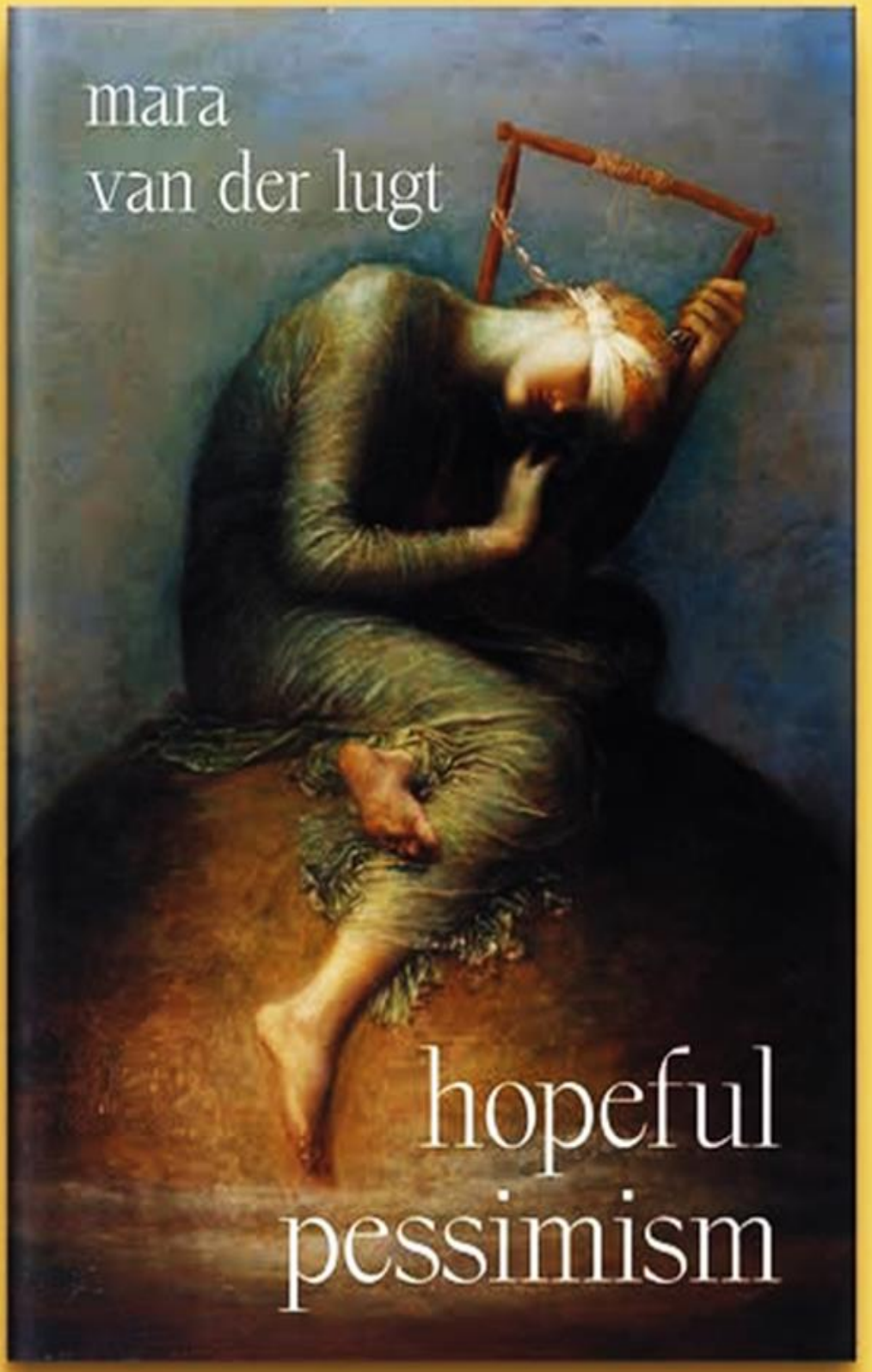

كريم حداد

نقد أخلاق النصر

كريم حداد

السبت 15 آب 2026

ثمة فكرة أخلاقية تسللت إلى وعينا الحديث حتى كادت تصبح بديهية: لكي نقاوم ينبغي أن نؤمن بأننا سننتصر. ولكي نعمل من أجل تغيير العالم ينبغي أن نعتقد أن العالم قابل للتغيير بالقدر الذي يجعل النجاح مرجحًا. ومن يشك في ذلك يُتهم بالتشاؤم، ثم يُسحب التشاؤم سريعًا إلى اليأس، واليأس إلى الاستسلام، حتى يصبح التفاؤل فضيلة في ذاته، ويغدو الشك في المستقبل عيبًا أخلاقيًا.

كتاب «التشاؤم المفعم بالأمل Hopeful Pessimism «للفيلسوفة مارا فان دير لوغت، الصادر عن جامعة برينستون عام 2025، يشن هجومًا فلسفيًا هادئًا على هذه السلسلة من المسلمات.

الكتاب نقد لما يمكن تسميته «أخلاق النصر»: تلك الأخلاق التي تربط قيمة الفعل باحتمال نجاحه، وتجعل من الثقة بالمستقبل شرطًا للاستمرار في الحاضر. فالإنسان، وفق هذا المنطق، يحتاج دائمًا إلى «قصة نجاح» أمامه: انتصار سياسي قريب، حل تكنولوجي وشيك، تحول اجتماعي حتمي، أو تقدم تاريخي يكفل في النهاية مكافأة الذين وقفوا في الجانب الصحيح. وما إن تتراجع احتمالات هذه النهاية السعيدة حتى يظهر السؤال المحبط: ما جدوى الاستمرار؟

تبدأ المؤلفة بتفكيك واحد من أكثر الالتباسات رسوخًا: التشاؤم ليس القدرية. أن تعتقد أن الاحتمالات سيئة لا يعني أن تعتقد أن المستقبل مغلق. قد يرى المرء أن مشروعًا ما مرشح للفشل، وأن موازين القوى ضده، وأن التاريخ لا يقدم سببًا كافيًا للثقة، ثم يعمل مع ذلك بكل ما لديه لمنع النتيجة التي يخشاها. المشكلة ليست في التشاؤم بل في الاعتقاد بأن لا شيء يمكن فعله. وهذه القدرية قد ترتدي ثيابًا قاتمة، لكنها تستطيع أيضًا أن ترتدي ثياب التفاؤل: التكنولوجيا ستحل الأزمة، التاريخ يسير حتمًا نحو التقدم، الأمور ستستقيم من تلقاء نفسها. في الحالتين ينتهي الإنسان إلى النتيجة ذاتها: لا حاجة ملحة إلى الفعل.

لهذا ترى فان دير لوغت أن المتشائم قد يكون، على نحو يبدو مفارقًا، أكثر قدرة على الاستمرار من المتفائل. النشاط الذي يعتمد على توقع النجاح شديد الهشاشة؛ كل خسارة تهدد الأساس النفسي الذي قام عليه. أما من لا يجعل التزامه مشروطًا بمكافأة قريبة، فيستطيع أن يتحمل الخيبات بصورة مختلفة. تستخدم المؤلفة استعارة

جميلة: النشاط المتشائم قد يكون نارًا بطيئة الاحتراق، لا تحتاج كل يوم إلى وقود الانتصارات الصغيرة لكي تبقى مشتعلة.

هنا يبرز ألبير كامو بوصفه أحد الأرواح الفلسفية التي تسكن الكتاب. فكامو، في قراءتها، يقدم نموذجًا لمقاومة لا تحتاج إلى ضمان تاريخي. ثمة أفعال نفعلها لأن عدم فعلها أسوأ أخلاقيًا، لا لأن نجاحها مضمون. نقاوم الظلم لأن الظلم لا يصير مقبولًا لمجرد أن ميزان القوى يميل إليه. ندافع عن البشر لأن قيمتهم لا تتوقف على إمكانية إنقاذهم جميعًا. ونقف في جانب الحياة لأن احتمالات المنتصرين ليست هي التي تقرر أي جانب يستحق الوقوف معه.

هكذا تنفصل أخلاق الفعل عن أخلاق النتيجة. وهو لا يعني اللامبالاة بالنتائج. فالكتاب لا يقول إن التخطيط غير مهم، ولا إن الكفاءة والاستراتيجية وحساب موازين القوى أمور ثانوية. على العكس، من يأخذ قضيته بجدية يريد أن تنجح أفعاله، ولذلك يختار الوسائل الأكثر فاعلية. لكنّ هناك فرقًا بين أن تسعى إلى النجاح، وبين أن تجعل احتمال النجاح شرطًا أخلاقيًا مسبقًا للفعل.

وتكمن هنا إحدى أخطر نتائج «أخلاق النصر». فهي تنتج ناشطًا لا يحتمل التاريخ الحقيقي، وهو خلافًا للأساطير التي نكتبها عنه لاحقًا، مليء بالتراجعات والانكسارات والطرق المسدودة والانتصارات المؤقتة. ومن هنا تأتي فكرتها الأكثر ابتكارًا، التمييز بين ما تسميه «الأمل الأخضر» و«الأمل الأزرق».

لا يهم إن كنت متفائلًا أو متشائمًا، لأن الاختبار الحقيقي هو ما تفعله، والأمل الذي لا يتحول إلى فعل لا يساوي شيئًا، والتشاؤم الذي يتحول إلى ذريعة للانسحاب لا يساوي شيئًا كذلك

«الأخضر» يقول إننا نستطيع أن نفعلها، مستندًا إلى معطيات إيجابية ونجاحات سابقة، وإلى تقدير بأن المستقبل قد ينفتح على نتيجة حسنة. لا مشكلة في هذا النوع من الأمل، ما دامت أسبابه قائمة... وهنا يظهر «الأزرق»، ورسالته ليست «سننجح»، بل «علينا أن نحاول». لهذا تستطيع فان دير لوغت أن تقول إن الأمل الأزرق أقرب إلى العدالة والواجب منه إلى التفاؤل.

الأكثر إثارة أن هذا الأمل يولد من الشيء الذي يزعج المتفائل: عدم اليقين. فالمتفائل يريد أسبابًا تجعله يعتقد أن الغد سيكون أفضل. أما المتشائم المفعم بالأمل، فيكتفي بأن الغد لم يُكتب بعد. لا توجد حتمية للتقدم، لكن لا توجد أيضًا حتمية للانحدار. المستقبل مفتوح، وخطورته نفسها هي مصدر إمكانه. ما دام التاريخ لم يُغلق، فلا

يوجد حكم نهائي يمنح الشر انتصاره قبل وقوعه. والكتاب أكثر جرأة لأنه يعيد الاعتبار حتى إلى الحزن واليأس.

ثقافتنا المعاصرة شديدة الارتياب في المشاعر السلبية. ما إن يعبّر شخص عن خوفه أو حزنه أو يأسه حتى يبدأ الخطاب العلاجي: عليك أن تحافظ على الإيجابية، أن تبحث عن الجانب المشرق، أن تتمسك بالأمل. وفي ذلك، بحسب فان دير لوغت، قدر من القسوة الخفية. فالإنسان الذي يتألم بسبب خسارة حقيقية يُحمَّل عبئًا إضافيًا: عليه الآن أن يشعر بالذنب لأنه لا يتعامل مع الألم بتفاؤل كافٍ.

الحزن، في المقابل، قد يكون معرفة. نحن نحزن لأن شيئًا له قيمة قد فُقد. ولذلك يمكن للحزن أن يكون بداية التزام، لا نهايته. وتعتمد المؤلفة هنا على فكرة قريبة من جوديث بتلر: الحداد قادر على إعادة تشكيل إحساسنا بالهشاشة والمسؤولية المشتركة، أي إن الألم نفسه قد يصبح موردًا سياسيًا وأخلاقيًا.

حتى اليأس لا تضعه الكاتبة في خانة واحدة. ثمة يأس يشل الإرادة بالفعل، لكنه ليس الصورة الممكنة الوحيدة. قول الإنسان «أنا يائس» قد يعني الاستسلام، وقد يعني أيضًا أن الوضع صار بالغ الخطورة إلى حد أن كل شيء في داخله يصرخ طلبًا للفعل. ومن ثم يصبح اليأس أحيانًا شكلًا من أشكال الإدراك الحاد للواقع، لا مجرد ضعف نفسي.

في الصفحات الأخيرة يصل الكتاب إلى نتيجة تكاد تجعل عنوانه نفسه مؤقتًا. بعد أن يؤدي مفهوم «التشاؤم المفعم بالأمل» وظيفته في تحرير التشاؤم من تهمة الاستسلام، تقول فان دير لوغت إنه يمكننا تقريبًا الاستغناء عن صفة «المفعم بالأمل». كن متفائلًا أو متشائمًا، لا يهم كثيرًا. الاختبار الحقيقي هو ما تفعله. الأمل الذي لا يتحول إلى فعل لا يساوي شيئًا، والتشاؤم الذي يتحول إلى ذريعة للانسحاب لا يساوي شيئًا كذلك.

ربما لهذا تبدو هذه الفلسفة مناسبة لزمننا أكثر من خطاب التحفيز الذي يملأ السياسة والثقافة العامة. فالبشر الذين يعيشون الحروب والكوارث والانهيارات البيئية والسياسية لا يحتاجون دائمًا إلى من يَعِدهم بأن كل شيء سيكون بخير. أحيانًا يحتاجون إلى فكرة أكثر صلابة: قد لا يكون كل شيء بخير، ومع ذلك تبقى هناك أشياء تستحق أن نقاتل من أجلها.

الفضيلة هنا ليست الثقة بالنصر، بل الوفاء للقضية. ليست القدرة على إقناع النفس بأن النهاية سعيدة، بل القدرة على النظر إلى الاحتمال الأسوأ من دون أن يمنحنا ذلك عذرًا للانسحاب. وربما تكون المقاومة، بمعناها الأخلاقي الأوسع، هي بالضبط هذه القدرة: أن تعرف أن التاريخ لا يدين لك بشيء، ثم تواصل مطالبته بالعدالة.